حوليات آداب عين شمس المجلد ٤٩ (عدد إبريل – يونيو ٢٠٢١)
http://www.aafu.journals.ekb.eg
(دورية علمية محكمة)

الصوائت العربية الفصيحة
(قراءة تأصيلية مختلفة)

ماجد بن هلال العصيمي*

* الأستاذ المساعد بقسم اللغة العربية وآدابها - كلية الآداب - جامعة الملك عبد العزيز- جدة - المملكة العربية السعودية
e-mail: mhmaso@gmail.com

المستخلص

يسعى هذا البحث إلى دراسة الصوائت في العربية الفصيحة دراسة صوتية، بهدف بيان: الصوائت الأصول والفروع ونطقها، وتواليها في الكلمة (الصوائت المركبة)، وما يكون بين الصوائت والصوامت من تجاذب. ويقوم هذا البحث على تمثل وصف المتقدمين لأصوات العربية الفصيحة، وتبنيه، والبناء عليه، وتوضيح بعض ما أثير حوله من إشكال، ثم يحاول أخيراً ربطه بأحد منجزات الجمعية الصوتية الدولية وهو (شبه منحرف الصوائت)، وبيان الكتابة الصوتية الصحيحة لكل تنويع صوتي من الصوائت العربية.

الكلمات المفتاحية:

الأصوات، الصوائت، العربية، الصوائت المركبة.

© جميع حقوق الطبع والنشر محفوظة لحولية كلية الآداب - جامعة عين شمس ٢٠٢١.

المقدمة

كان الخليل هو المؤسس الأكبر للبناء النظري اللغوي العربي على المستوى الصوتي والمعجمي والصرفي والنحوي والعروضي ... ثم انطلق اللغويون من بعده يحاولون البناء على تلك الأسس التي وضعَها، أو شرْحها أو تعليلها والاحتجاج لها، ولعل ابن جني كان آخر أولئك البناة المؤسسين. وحين حدّ ابن جني (اللغة) بأنها (أصوات) كان ينطلق من رؤية واضحة لأحد تلك الأسس؛ لأنها عندهم (الموضوع) المقصود بالوصف عند دراستهم للغة.

وقد قدم اللغويون العرب القدماء على المستوى الصوتي دراسات متينة، فرضت على أكثر المحدثين الاعتراف بدقتها ومتانتها، لكنهم مع ذلك يهضمونها حقها، ويقللون من شأنها لعدم امتلاك القدماء لأجهزة القياس الدقيقة الموجودة اليوم! ثم حين تطالبهم بذكر الأخطاء العلمية التي يمكن تصويبها في دراسات المتقدمين، لا ترجع منهم إلا بقبض الريح، ولا تجد عندهم أي إثبات علمي أثبتته تلك الأجهزة الدقيقة، وغاية ما تخرج به منهم أنهم يحاكمون البناء النظري للغويين العرب القدماء إلى بناء نظري آخر غريب عنه[1]! ثم لا تجد منهم بعد ذلك إلا التحكم في تصويب بناء نظري وتخطئة غيره.

إن المعضلة الكبرى التي تقف أمام الباحثين المحدثين تكمن في أننا اليوم لا نمتلك العربية الفصيحة التي يمكن وصفها وقياسها ودراستها؛ لذا لا مناص لنا من الاعتماد على وصف المتقدمين لأصوات العربية الفصيحة؛ لاستناد وصفهم إلى المعاينة والسماع، ثم مقارنته مع نطقنا اليوم، وهو غالباً نفسه أو قريب منه ويمكن تصوره وتمثله بشكل عام.

وقد جمعتُ بعض انتقادات المحدثين لدراستنا الصوتية ونقدتها وبينت اختلالها في الفهم أو في المنهج، ثم بدا لي أن أتجاوز النقد إلى بناء الرؤية الصحيحة كما أراها من وجهة نظري؛ خروجاً من الإشكالات الشخصية والذاتية، ولأن بيان الصواب أنفع من تخطئة الخطأ، فاستقر الرأي على تقديم ورقة ترسم بعض الخطوط العريضة لموضوع صوتي واحد هو (الصوائت العربية) لتسهل قراءتها وتنشط النفوس لفهمها ونقدها وتمحيصها، حتى إذا تقرر ما فيها؛ أمكنني حينئذ - أو غيري - البناء عليها والتفريع على مسائلها.

ولست أزعم – معاذ الله – أني أول من بحث الموضوع، فقد كُتب فيه أبحاث متعددة ومتداولة، ولكني أحسب أن الموضوع لا زال بحاجة إلى عمل ينقل ثنائية القديم / الحديث من محور زمني يهضم القديم حقه في غالب الأحوال إلى محور معرفي يعنى بالحقائق العلمية، ويميز بينها وبين اختلاف الأبنية النظرية، ولعل هذه الورقة تضيء بعض العتمة في هذه المنطقة من العلم، وهي منطقة كثيرة المزالق، بل إنها تعد من المزانق العلمية التي كنت أتهيب الكتابة فيها، ولم أكتب فيها إلا بعد أن وطنت نفسي على قبول التخطئة، فالعلم الحقيقي كما يقول بوبر هو العلم القابل للتخطئة.

ولما كنا نحن ورثة البناء النظري الذي أسسه اللغويون العرب القدماء كان لزاماً علينا المحافظة على إرثنا بتحديثه والبناء عليه وتصويبه إن وجدنا مسوغاً لذلك؛ لذا فإن هذا البحث قائم على تمثل وصف المتقدمين لأصوات العربية الفصيحة، وتبنيه، والبناء عليه، وتوضيح بعض ما أثير حوله من إشكال، ومحاولة ربطه أخيراً بأحد منجزات الجمعية الصوتية الدولية وهو (شبه منحرف الصوائت)، والاجتهاد (قدر الإمكان) في بيان الكتابة الصوتية الصحيحة لكل تنويع صوتي من الصوائت العربية، وهي محاولة ترجو التوفيق والسداد من الله أولاً، كما تأمل التسديد والتصويب من الباحثين والدارسين للصوتيات

العربية؛ لأن في ذلك تيسيراً على الدارسين وعلى متعلمي العربية من غير أهلها أو متعلمي اللغات من العرب، كما أنه يستلزم تعديل أكثر الكتابات الصوتية المتداولة للعربية اليوم، ولعله أيضاً يسهم في مجال التقنية الصوتية يوماً ما.

وقد قسمت عملي إلى العناوين التالية:

١ - مدخل: الصوت والحرف.
٢ - الصوائت الأصول في العربية.
٣ - نطق الصوائت الأصول في العربية.
٤ - توالي الحروف والحركات (الصوائت المركبة).
٥ - تجاذب الصوامت والصوائت.
٦ - الصوائت الفروع في العربية.
٧ - شبه منحرف الصوائت.

١ – مدخل: الصوت والحرف:

(**الصوت**): ظاهرة طبيعية تنشأ عن اهتزاز الأجسام، وندركها بحاسة السمع وفق شروط محددة. أو كما يقول الجاحظ (-٢٥٥): "الصوت عرض، لا يحدث من جوهر إلا بدخول جوهر آخر عليه، ومحال أن يحدث إلا وهناك جسمان قد صك أحدهما صاحبه، ولا بد من مكانين: مكان زال عنه، ومكان آل إليه. ولا بد من هواء بين المصطكين. والجسم قد يحدث وحده ولا شيء غيره، والصوت على خلاف ذلك" (الرسائل، ج ٣ ص ٢٨٩).

ولا يخرج (الصوت اللغوي) عن إطار هذه الظاهرة الطبيعية العامة، إلا في اختصاصه بمصدر مخصوص هو (جهاز النطق عند الإنسان)، وفي أدائه – عند التركيب - لدور وظيفي معين هو (الإحالة إلى معنى وضعي)؛ وقد أدت هذه الخصوصية إلى أن يكون (الصوت اللغوي) موضوعاً لعلم أصوات مستقل يعنى بدراسة هذه الظاهرة الجزئية.

و (**الحرف**): عند اللغويين العرب القدماء هو الصوت اللغوي، ويخطئ من يقصره على الرمز المكتوب (Letter) كما يفعل بعض المحدثين – تقليداً – مما أدى إلى اللبس والخلط والتأويل الخاطئ لكلام اللغويين العرب القدماء[٢]، كما يخطئ أيضاً من يقصره على الصورة العقلية المجردة للصوت.

ومن الدلائل على أن مرادهم بالحرف هو الصوت اللغوي قول سيبويه: "وهذه الحروف التي تممتها اثنين وأربعين جيدها ورديئها أصلها التسعة والعشرون لا تتبين إلا بالمشافهة" (الكتاب، ج ٤ ص ٤٣٢) فلو كان المراد بالحرف الرمز الكتابي لتبين دون مشافهة. ومثله قول ابن جني: "ولا يصح أمر هذه الحروف الأربعة عشر اللاحقة للتسعة والعشرين حتى كملتها ثلاثة وأربعين إلا بالسمع والمشافهة" (سر صناعة الإعراب، ج ١ ص ٤٦) والشواهد من كلامهم على هذا المعنى كثيرة، يسهل تتبعها وسردها.

وربما كان أوضح تحديد لمعنى الحرف هو قول ابن جني: "الصوت: عرض يخرج مع النفس مستطيلاً متصلاً، حتى يعرض له في (الحلق، والفم، والشفتين) مقاطع تثنيه عن امتداده واستطالته، فيسمى المقطع أينما عرض له (حرفاً). وتختلف أجراس الحروف بحسب اختلاف مقاطعها ..... فإن اتسع مخرج الحرف حتى لا يقطع الصوت عن امتداده واستطالته **استمر** الصوت ممتداً حتى ينفد، فيفضي حسيراً إلى مخرج الهمزة[٣]، فينقطع بالضرورة عندها إذ لم يجد منقطعاً فيما فوقها" (سر صناعة الإعراب، ج ١ ص ص ٦-٧). فالحروف إذن أجراس مختلفة للصوت اللغوي بحسب اختلاف (الموضع) الذي يقطع أو يعترض الصوت الخارج مع النفس وهو ما اصطلح على تسميته بـ (المخرج) ومنه يظهر أن تمييز اللغويين العرب القدماء[٤] بين (الصوت) و (الحرف) إنما هو تمييز بين الجنس وأحد أنواعه.

ومن الدلائل أيضاً على أن مرادهم بالحرف هو الصوت اللغوي تمييزهم بين (الحروف الأصول) وهي في العربية تسعة وعشرون حرفاً لها رموز كتابية خاصة، و (الحروف الفروع) وهي أصوات لغوية ليس لها أي رمز كتابي وإنما هي صور وتنويعات صوتية متفرعة عن الأصول، وتقوم بوظيفتها الدلالية نفسها، وقد اختلفوا في عددها كما هو ظاهر في النصوص السابقة وغيرها، والباب في عددها مفتوح للزيادة[٥].

وأخيراً من الدلائل على أن مرادهم بالحرف هو الصوت اللغوي تمييزهم كما في كلام ابن جني السابق[٦] بين حروف لها مواضع تقطع الصوت الخارج مع النفس فتثنيه عن امتداده واستطالته، وحروف أخرى متسعة المخرج فليس لها مقاطع تثني الصوت عن امتداده واستطالته؛ لذا فإن الصوت يستمر معها ممتداً في الهواء حتى ينفد[٧]، فهذا تمييز بين

الأصوات وليس له علاقة بالرسم الكتابي. وقد أطلق الخليل على النوع الأول ههنا اسم: الحروف الصحاح، وعلى الثاني اسم: الحروف الهوائية، والجوف (العين، ج ١ ص ص ٥٧ - ٥٨)، وقد يسمى الثاني عند سيبويه وتابعيه حروف المد واللين، كما يسمى حروف العلة (في علم الصرف) لما يعتريها من تغير[٨].

وقد اصطلح اليوم على تسمية النوع الأول بـ (الصوامت)[٩] والثاني بـ (الصوائت)، وسيستعمل الباحث هذين المصطلحين لشهرتهما اليوم، ولإمكان تعميم مصطلح (الصوائت) ليشمل الحروف والحركات، مع حضور غيرهما عند الاقتباس، حيث يطلق الدارسون على (الصوامت): الحروف الصحيحة، السواكن، الجامدة ... كما يطلقون على (الصوائت): حروف المد، اللين، العلة، الحركات، المصوتات ... وهذا الصنف الأخير هو المقصود بالبحث.

٢ - الصوائت الأصول في العربية:

يحسن عند البدء بدراسة الصوائت اتخاذ بعضها أصولاً؛ لتكون أساساً ومنطلقاً للوصف، ومعياراً يحتكم إليه عند دراسة بعضها الآخر. وفي العربية ستة صوائت أصول[١٠] (فونيمات)، نصفها حروف، هي: /ا/ ، /و/ ، /ي/ ونصفها الآخر حركات، هي: / ـَ / ، / ـُ / ، / ـِ / .

والحركات في البناء النظري للغويين العرب القدماء كيانات صوتية متفردة، و (فونيمات) مباينة للحروف وقسيمة لها؛ لأنها تقوم بوظيفة مختلفة عنها، مما استلزم إفرادها برسم خاص بها يميزها عن الحروف الصوائت[١١]، ويخلط بعض المحدثين فيسميها (حروف مد قصيرة). وفي المقابل إن الحروف الصوائت عندهم ليست حركات، ويخلط بعض المحدثين فيراها عندهم كذلك ويسميها (حركات طويلة)[١٢]، وقد أدت هذه التسميات الدخيلة إلى تصورات ملتبسة وتأويلات خاطئة لكلامهم.

ومن الناحية النطقية أيضاً تتميز الحركات عن الحروف الصوائت كماً وكيفاً، فالشائع أن المائز بينهما هو (كمية المدة الزمنية[١٣]) التي يحتفظ فيها تجويف الفم بوضع معين، حيث إن الحركات أقصر من حيث الكمية[١٤]، يقول ابن جني: "الحركات **أبعاض** حروف المد واللين، وهي الألف والياء والواو، فكما أن هذه الحروف ثلاثة، فكذلك الحركات ثلاث، وهي: الفتحة والكسرة والضمة، فالفتحة بعض الألف، والكسرة بعض الياء، والضمة بعض الواو. وقد كان متقدمو النحويين يسمون الفتحة الألف الصغيرة، والكسرة الياء الصغيرة، والضمة الواو الصغيرة ... ويدلك على أن الحركات أبعاض لهذه الحروف أنك متى **أشبعت** واحدة منهن حدث بعدها الحرف الذي هي بعضه ..." (سر صناعة الإعراب، ج ١ ص ص ١٧ - ١٨)[١٥].

ويضيف سعد مصلوح مائزاً آخر كيفياً، حيث يلحظ أنه عند المقارنة بين نطق (سِيْن، سُوْد) ونطق (سِن، سُد) فإن تجويف الفم مع حرفي (الواو، الياء) أكثر ضيقاً منه مع حركتي (الضمة، الكسرة). (دراسة السمع والكلام، ص ٢٠٩)، كما يمكن أن نلحظ أن تجويف الفم مع الألف أكثر اتساعاً وانفتاحاً منه مع الفتحة عند نطق (سَاد، سَد).

ومع وجود هذه المغايرة النطقية كماً وكيفاً إلا أنها مغايرة يسيرة توجب التمايز دون أن تسلب التجانس؛ لذا كانت الفتحة عندهم من جنس الألف، والضمة من جنس الواو، والكسرة من جنس الياء، والمراد بالتجانس ههنا أن تشترك الحركات والحروف الصوائت في هيئة تجويف الفم، ثم تختلف بعد في درجة اتساعه وضيقه، مما أدى إلى بروز مفهومي (التبعيض) و (الإشباع) عند ابن جني في النص السابق، حيث يرى أن الحركات أبعاض حروف المد، وحروف المد حركات مشبعة؛ ولذا قال في موضع آخر: "إنك إذا أشبعتَ

الحركة تممتها حرف مد، كما تقدم من قولنا في نحو: (ضَرَب) و (قَتَل) إذا أشبعتَ حركة الفاء قلت: (ضارَب) و (قاتَل). و(ضُرِب) و (قُتِل) إذا أشبعتَ قلت: (ضُورِب) و (قُوتِل). وكذلك (ضِراب) و (قِتال) إذا أشبعتَ قلت: (ضِيراب) و (قِيتال) ...". (سر صناعة الإعراب، ج ١ ص ٣٠) وقال أيضاً: "الألف فتحة مشبعة، والياء كسرة مشبعة، والواو ضمة مشبعة" (سر صناعة الإعراب، ج ١ ص ٢٣)[١٦].

وليس المراد بالإشباع ههنا الجانب الكمي وحده كما فهم المحدثون، وإنما مراده بالإشباع هو "تمكين الحركة، ومطلها واستطالتها". (ابن جني: سر صناعة الإعراب، ج ١ ص ٣٢) فـ (تمكين الحركة) يكون بتضييق تجويف الفم قليلاً مع الضمة والكسرة، واتساعه قليلاً مع الفتحة، و (مطل الحركة واستطالتها) يكون بالمحافظة على وضعية تجويف الفم عند النطق بها مدة زمنية أكبر، وبهذا التمكين والمطل تنتفي أسباب المغايرة الكمية والكيفية. وبه يتضح أن المغايرة النطقية بين الحركات والحروف الصوائت مغايرة في الدرجة لا في النوع، أي مغايرة في درجة التمكين والمطل ومداها، حيث الحركات هي الحروف الصوائت نفسها ولكن قبل أن تبلغ مداها من التمكين والمطل (=بعض)، والحروف الصوائت هي الحركات نفسها ولكن بعد أن تبلغ مداها من التمكين والمطل (=الإشباع)، وفي هذا السياق يقول ابن جني عن الحركات: "لا يبلغ الناطق بها مدى الحروف التي هي أبعاضها، فإن بلغ بها مداها تكملت الحركات حروفا أعني ألفا وياء وواوا" (سر صناعة الإعراب، ج ١ ص ٢٧).

ومن خلال هذه المفاهيم الثلاثة (المجانسة) و (الإشباع) و (التبعيض) يمكن أن نفهم رؤيتهم في وجود حركات مجانسة قبل حروف المد، حيث يُنطق صوت المد عندهم على مرحلتين متمايزتين كماً وكيفاً، ولكنهما مع ذلك متداخلتان لما بينهما من التجانس، فيعدان صوتاً واحداً ينطق أوله دون تمكين ومطل وينطق ثانيه بالتمكين والمطل، وقد أثبتت الصوتيات التجريبية اليوم دقة هذا الوصف وصواب هذه الرؤية[١٧].

ويمكن أن نفهم أيضاً رؤية ابن جني في أن الحركة المجانسة قبل حرف المد أول له وبعض منه (انظر: ابن جني: سر صناعة الإعراب، ج ١ ص ٣١) فهو لا يقصد بذلك أن يكون صوت المد مبنياً من حركات مستأنفة ومتتابعة، كما يفعل بعض اللسانيين حين يجعلون الصوائت الطويلة مبنية من حركتين قصيرتين متتاليتين (انظر: تمام حسان: مناهج البحث في اللغة، ص ١٣٧)، كما لا يعني كلامه استئناف مد بعد الحركة، ولكنه يعني أن صوت المد مع أنه ينطق على مرحلتين لكنهما متداخلتان في صوت واحد متصل يجري "مجرى الجزء الواحد الذي لا يسوغ تجزؤه" (ابن جني: سر صناعة الإعراب، ج ١ ص ٣٢)، ويبين ذلك بقوله في الرد على من يرى أن حرف المد إنما هو مستأنف بعد حركة مجانسة: "لا يمكن فصل الحركة منه والعود إلى استتمامه؛ لأن هذه المَدة المستطيلة إنما تسمى حرفاً ليناً ما دامت متصلة، فمتى عقتها عن الاستطالة بفصل ما فقد أخرجتها عن اللين والامتداد الذي في شرطها" (ابن جني: سر صناعة الإعراب، ج ١ ص ٣٢).

٣ ـ نطق الصوائت الأصول في العربية:

إذا كانت أجراس الصوامت تختلف بسبب اختلاف المقاطع، فكيف تختلف أجراس الصوائت وليس ثمة مقاطع بل هي أصوات مستمرة ممتدة؟!

وقبل الإجابة عن هذا السؤال يحسن التأكيد أولاً على حقيقتين: أولاهما: إن جميع الأصوات العربية (ومنها الصوائت) تنتج مع الزفير. أما الحقيقة الثانية فهي التي قررها

سيبويه منذ البدء من أن: الحروف (=الأصوات اللغوية) لا تتبين إلا بالسماع والمشافهة، ولكن الوصف يقربها للفهم فقط.

إذا تقرر ذلك، يجيب ابن جني عن السؤال فيقول: "الصوت الذي يجري في الألف مخالف للصوت الذي يجري في الياء والواو، والصوت الذي يجري في الياء مخالف للصوت الذي يجري في الألف والواو. والعلة في ذلك أنك تجد الفم والحلق في ثلاث الأحوال مختلف الأشكال ... فلما اختلفت أشكال الحلق والفم والشفتين مع هذه الأحرف الثلاثة اختلف الصدى المنبعث من الصدر، وذلك قولك في الألف (اَا) وفي الياء (اِيْ) وفي الواو (أوْ)" (سر صناعة الإعراب، ج ١ ص ٨)، وبلغة معاصرة: إن اختلاف الصوائت حادث عن اختلاف الترددات داخل عمود الهواء في القناة الصوتية، حيث تتشكل القناة الصوتية بأشكال متنوعة فتتحول إلى غرف رنين مختلفة باختلاف الصوائت مما يؤدي إلى اختلاف الأثر السمعي الحادث عنها[١٨].

ويبين ابن جني هذه الأشكال المختلفة للحروف الصوائت: /ا/ ، /و/ ، /ي/ فيقول: "أما الألف فتجد الحلق والفم معها منفتحين غير معترضين على الصوت بضغط أو حصر، وأما الياء فتجد معها الأضراس سفلاً وعلواً قد اكتنفت جنبتي اللسان وضغطته، وتفاج الحنك عن ظهر اللسان، فجرى الصوت متصعداً هناك، فلأجل تلك الفجوة ما استطال. وأما الواو فتضم لها معظم الشفتين، وتدع بينهما بعض الانفراج ليخرج فيه النفس، ويتصل الصوت" (سر صناعة الإعراب، ج ١ ص ٨).

فمن الواضح ههنا أننا إزاء ثلاثة أشكال مختلفة للقناة الصوتية عند نطق الحروف الصوائت العربية، واستناداً إلى وصف ابن جني يمكن تمثيل الصورة المثالية لشكل القناة الصوتية عند نطق الألف بالرسم التالي:

الرسم (١)

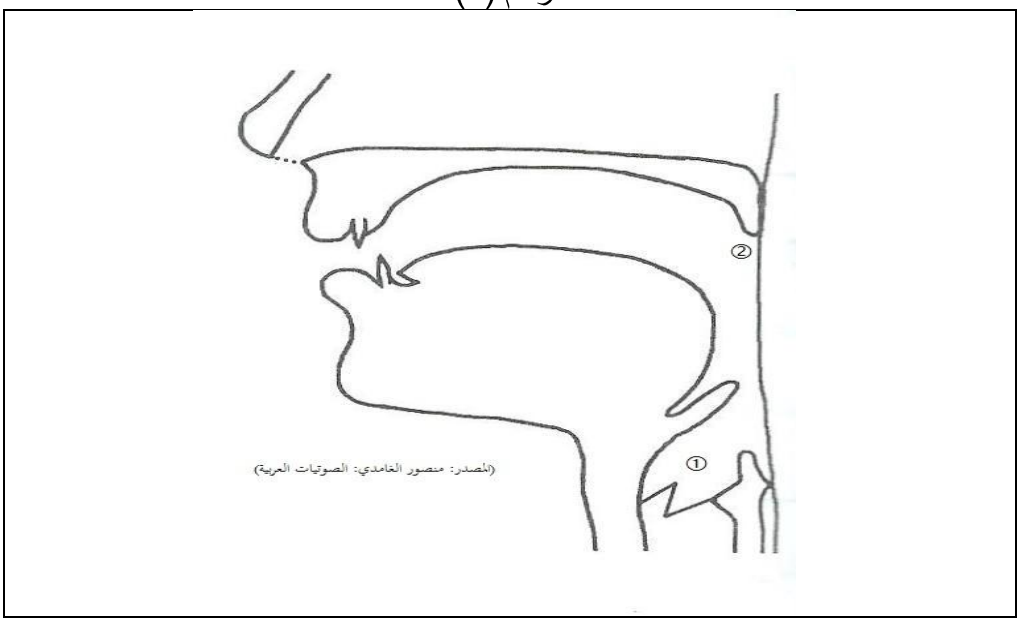

حيث نلاحظ في الرسم السابق:

- إن الألف صوت مجهور، أي: يهتز الوتران الصوتيان معه. [انظر: رقم (١) في الرسم]

- إن صوت الألف يخرج من تجويف الفم حيث يرتفع الحنك اللين معه فيغلق التجويف الأنفي. [انظر: رقم (٢) في الرسم]

وبهذا يمكن القول: إن صوت الألف أشبه شيء بالصوت المجرد الذي وصفه ابن جني بأنه: "عرض يخرج مع النفس مستطيلاً متصلاً"؛ لأنك "تجد الحلق والفم معها منفتحين غير معترضين على الصوت بضغط أو حصر" أو كما يقول في موضع آخر: "يجري الصوت في الألف غفلاً بغير صنعة" (سر صناعة الإعراب، ج ١ ص ٨). ولو قال قائل: إن انفتاح الفم مع صوت الألف يعد صنعة في حد ذاتها. فإنه مصيب عندي، ولكننا نعد صوت الألف بما فيه من صنعة الانفتاح هو الصائت الصفري، الذي سننطلق في وصف بقية الصوائت العربية منه[١٩].

وهو عند المحدثين: صائت طويل[٢٠]، مفتوح[٢١]، غير مضموم الشفتين[٢٢]. أما وصفهم له بأنه (أمامي)[٢٣] فغير مفهوم في الألف العربية؛ إذ لا علاقة بين هذا الصوت في العربية وأي جزء من اللسان أصلاً[٢٤]! بل هو صوت يخرج بغير صنعة، وقد نص سيبويه على أنه "ليس منها علاج على اللسان والشفة، ولا تحرك أبداً، فإنما هي بمنزلة النفَس" (الكتاب، ج ٤ ص ٣٣٦).

كما يمكن تمثيل الصورة المثالية لشكل القناة الصوتية عند نطق الواو بالرسم التالي:

الرسم (٢)

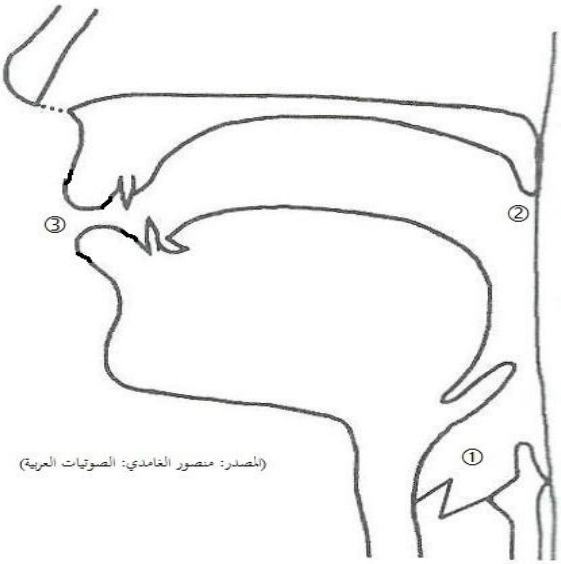

(المصدر: منصور الغامدي: الصوتيات العربية)

حيث نلاحظ في الرسم السابق: إن صوت الواو هو نفسه صوت الألف [انظر: رقم (١) و (٢) في الرسم] مع إضافة ضم الشفتين (=استدارتهما) دون أي إعاقة للهواء، أو كما يقول ابن جني: "تضم لها معظم الشفتين، وتدع بينهما بعض الانفراج ليخرج فيه النفس، ويتصل الصوت"، فإذا كانت الألف تخرج بغير صنعة فإن الواو تخرج بصنعة الشفتين، لكن كما تبين من قبل دون أي إعاقة للهواء سواء أكانت كاملة أم جزئية. [انظر: رقم (٣) في الرسم].

وهو عند المحدثين: صائت طويل، مفتوح، مضموم الشفتين[٢٥]، أما وصفهم له بأنه (ضيق)[٢٦] و (خلفي)[٢٧]! فغير مفهوم في الواو العربية؛ لأنهم بذلك يجعلونه من حروف الإطباق! ولا قائل به من علماء العربية، بل لا علاقة بين هذا الصوت في العربية وأي جزء من اللسان أصلاً[٢٨].

كما يمكن تمثيل الصورة المثالية لشكل القناة الصوتية عند نطق الياء بالرسم التالي:

الرسم (٣)

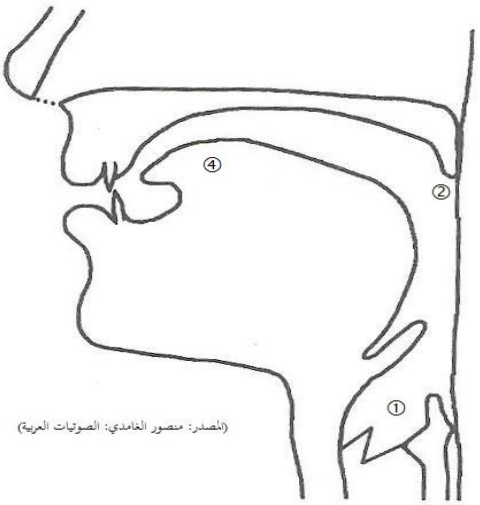

حيث نلاحظ في الرسم السابق: إن صوت الياء هو نفسه صوت الألف [انظر: رقم (١) و(٢) في الرسم] مع إضافة تقارب الفكين مع ارتفاع وسط اللسان نحو الحنك الصلب المجاور له دون أي إعاقة للهواء[٢٩]، أو كما يقول ابن جني: "تجد معها الأضراس سفلاً وعلواً قد اكتنفت جنبتي اللسان وضغطته، وتفاج الحنك عن ظهر اللسان، فجرى الصوت متصعداً هناك، فلأجل تلك الفجوة ما استطال"، فإذا كان الألف يخرج بغير صنعة فإن الياء يخرج بصنعة اللسان. [انظر: رقم (٤) في الرسم].

وهو عند المحدثين: صائت طويل، ضيق، أمامي، غير مضموم الشفتين[٣٠].

وأما الحركات العربية / ـَ / ، / ـُ / ، / ـِ / فإن أشكال القناة الصوتية عند النطق بها تختلف يسيراً عن أشكال النطق بالحروف الصوائت في درجة اتساع تجويف الفم وضيقه كما تبين من قبل في (سَاد، سِيْن، سُوْد) و (سَد، سِن، سُد).

٤ – توالي الحروف والحركات (الصوائت المركبة):

إذا تقرر أن الحركات أصوات مباينة للحروف؛ فإن بناء (الكلمة) يقوم على تتابع الحروف والحركات وتواليها؛ لذا أقام اللغويون العرب القدماء تحليلهم اللغوي (الصرفي، النحوي، العروضي) على التمييز بين الحرف المتحرك والساكن[٣١]. حيث: يسمى الحرف الذي تتبعه حركة (أي حركة): متحركاً، فإن لم تتبعه سمي: ساكناً، فلا يخلو الحرف إذن من أن يكون متحركاً أو ساكناً (انظر: ابن جني: سر صناعة الإعراب، ج ١ ص ٢٧). والمتحرك عندهم يقابل المقطع القصير المفتوح (CV) في البناء النظري للسانيات الحديثة[٣٢]، وقد قال الفارابي (ت ٣٣٩هـ) من قبل: "كل حرف غير مصوت أتبع بمصوت

قصير قُرن به، فإنه يسمى (المقطع القصير) والعرب يسمونه (الحرف المتحرك) من قِبل أنهم يسمون المصوتات القصيرة حركات" (الموسيقى الكبير، ص ١٠٧٥). وليس للمقطع أي دور في التحليل اللغوي عند اللغويين العرب القدماء، مع أنهم يستعملون بعض صوره في علم العروض بوصفها وحدات إيقاعية كالسبب الخفيف مثلاً.

وفي الكلمة العربية لا يجتمع ساكنان، بل لابد من تحريكهما أو تحريك أحدهما؛ لأن الحركة عندهم صائت وسيط لانتقال الصوت من حرف إلى آخر؛ وعند فقدها في حرف لا يكون ثمة انتقال؛ لذا يستأنف المتكلم الصوت من الحرف المتحرك بعده، وقد نص الخليل على أن الحركات "يلحقن الحرف ليوصل إلى التكلم به" (سيبويه: الكتاب، ج ٤ ص ٢٤١). فلا يخلو الحرف في الكلمة العربية إذن من أن: تتبعه حركة (=متحرك بعد ساكن)، أو تسبقه (=ساكن بعد متحرك)، أو تسبقه حركة وتتبعه أخرى (=متحرك بعد متحرك)، أما ألا تسبقه حركة ولا تتبعه في الوقت نفسه (=ساكن بعد ساكن) فلا وجود له في العربية.

وللحروف الصوائت مع الحركات في البناء النظري للغويين العرب القدماء حالات متعددة، وأحكام متفاوتة[٣٣]:

أما الألف فإنه لا يكون إلا ساكناً، أو كما يقول ابن جني: "حرف تؤمن حركته" (ابن جني: سر صناعة الإعراب، ج ١ ص ٢٢)، ولا تسبقه إلا الفتحة[٣٤]، فهو حرف مد ولين دائماً.

وأما الواو والياء فتأتيان ساكنتين أو متحركتين. فإن كانتا ساكنتين فهما حينئذ صائتان، ولهما في العربية حالتان: إما أن تسبقهما حركة مجانسة أو فتحة.

فإن سبقتهما حركة مجانسة كانتا حينئذ حرف مد ولين كالألف، حيث امتزجت الحركة في جنسها فتمحض الحرف للمد، ويبرز ههنا مفهوما (التبعيض) و (الإشباع) كما سبق بيانهما.

وإن سبقتهما الفتحة لم تكن مداً، وبقيت حرف لين لسكونها[٣٥]، ويعدان من الناحية النطقية من الصوائت المركبة (diphthongs) لأننا ههنا إزاء تتابع صائتين لم يفصل بينهما صامت[٣٦]، ويرمز لهما بـ: [ـَوْ] ، [ـَيْ]. أما من الناحية الوظيفية فلا يصح في العربية عدهما من الصوائت المركبة، بل هما فيها فونيمان متتابعان، ولكل منهما وظيفته[٣٧].

أما إن كانتا متحركتين فإنهما يعدان في البناء النظري للغويين العرب القدماء من الصوامت أو كما يقول ابن جني: "لحقتا بالحروف الصحاح" (ابن جني: سر صناعة الإعراب، ج ١ ص ٢٠)؛ لذا عوملتا معاملة الصوامت، وأخذتا أحكامها ومواقعها ووظيفتها، نحو صحة بدء الكلمة بهما (وَعد، يَبس ...) مثلاً، ونحو صحة مجيئها أصلاً من أصول الجذر المعجمي للكلمة العربية.

أما من الناحية النطقية فيعدان من الصوائت المركبة؛ لأنهما صائتان متتابعان لم يفصل بينهما صامت، فيتحصل لدينا حينئذ ستة صوائت مركبة، ولكل واحد منها رمز كتابي خاص يميزه عن غيره، وهي: [وَ] ، [وِ] ، [وُ] ، [يَ] ، [يِ] ، [يُ]. وكذلك هي من الناحية الوظيفية حيث يعد كل واحد من هذه الستة في العربية (فونيماً) مستقلاً؛ لأنها بعد التركيب تقوم بوظيفة الصوامت، فيلزم حينئذ عدها فونيماً واحداً /وَ/ ، /وِ/ ، /وُ/ ، /يَ/ ، /يِ/ ، /يُ/ لا مقطعاً مركباً من فونيمين متتابعين[٣٨]، ولعل هذا معنى قول ابن جني: "تقوّت بالحركة"، أي: أصبحت معها شيئاً واحداً (من الناحية الوظيفية)، وإن كانا في الحقيقة صوتين متتاليين (من الناحية النطقية).

فلا تخلو الحروف الصوائت إذن من أن: تتبعهما حركة (=صائت مركب)، أو تسبقهما فتحة (=صائتان متتابعان)، أو تسبقهما حركة مجانسة (=صائتان متتابعان)[٣٩]، ولا

تأتي في العربية الكسرة قبل الواو، ولا الضمة قبل الياء[٤٠]، وليس فيها أيضاً ألا تسبقهما حركة ولا تتبعهما في نفس الوقت (=ساكن بعد ساكن).

٥ ــ تجاذب الصوامت والصوائت:

إذا تقرر أن بناء (الكلمة) يقوم على توالي الحروف والحركات، فقد لحظ علماء العربية ظاهرة التأثير المتبادل بين الأصوات المتوالية بعد التركيب، وهو تأثير في المخرج وفي الصفة[٤١]، ولا مشاحة في تسمية هذا التأثير تجاذب أو إقلاق، وقد يبلغ التأثير مداه فيسمى إدغاماً، والذي يعنينا ههنا التأثير المتبادل بين الصوامت والصوائت، حيث نلحظ أن الواو والياء مثلاً تجتذبهما النون الساكنة إذا أتت قبلهما فتحولهما في العربية إلى صائتين أنفيين (سيبويه: الكتاب، ج ٤ ص ٤٥٣).

كما يمكن أن نلحظ (تبعاً لابن جني) أن الحركة "تقلق الحرف الذي تقترن به، وتجتذبه نحو الحروف التي هي أبعاضها، فالفتحة تجتذب الحرف نحو الألف، والكسرة تجتذبه نحو الياء، والضمة تجتذبه نحو الواو، ولا يبلغ الناطق بها مدى الحروف التي هي أبعاضها، فإن بلغ بها مداها تكملت الحركات حروفا أعني ألفا وياء وواوا" (سر صناعة الإعراب، ج ١ ص ٢٧) فالحركة إذن تؤثر في نطق الحرف الصامت السابق لها. كما أن الصوامت أيضاً تجتذب الحركات نحو مخارجها وتؤثر في نطقها؛ فالحركات التي تلي حروف الاستعلاء (خص ضغط قظ) تكون مفخمة؛ لأن "حروف الاستعلاء كلها مفخمة" (ساجقلي زادة: جهد المقل، ص ١٥٤)، والحركات بعد حروف الإطباق الأربعة أكثر تفخيماً[٤٢]، ويمتد هذا التجاذب أيضاً ليشمل الحروف الصوائت بعدها، فللصوائت إذن ثلاث حالات:

- الترقيق: وهي الصورة المثالية لشكل القناة الصوتية (وقد سبق وصفها).
- وتفخيم الإطباق: وتكون بعد (ط، ص، ض، ظ)، وهي الصورة المثالية مع بعض الإطباق.
- والتوسط بينهما: وتكون بعد (غ، خ، ق)، وهي الصورة المثالية مع بعض الاستعلاء.

ويمكن بيان ذلك في الجدول التالي[٤٣]:

الصائت	حالته	مثاله
الفتحة	مطبق	طن
	مرقق	تل
	متوسط	قد
الكسرة	مطبق	طب
	مرقق	سن
	متوسط	قف
الضمة	مطبق	طف
	مرقق	تب
	متوسط	قل

ونلحظ أيضاً أن إشباع هذه الحركات المفخمة ينتج عنه حروف مد مفخمة أيضاً، فيتحصل لدينا ثلاث حالات لحروف المد، هي: الترقيق والتفخيم والتوسط بينهما. ويمكن بيان ذلك في الجدول التالي:

الصائت	حالته	مثاله
الألف	مطبق	طاب
	مرقق	تاب

	متوسط	قاد
الياء	مطبق	طين
	مرقق	تين
	متوسط	قيد
الواو	مطبق	طوس
	مرقق	توت
	متوسط	قوت

من الواضح إذن أن عدد الصوائت العربية باعتبار النطق أكثر من عددها من حيث الوظيفة (ستة فونيمات)، ونطقها كما ترى متقارب كثيراً، وقد تتبادل المواقع دون أي تأثير في المعنى؛ لأنها في الحالات الثلاث مجرد تنويعات صوتية لحرف واحد.

٦ – الصوائت الفروع في العربية (الثانوية):

الصوائت (الفروع) وفق اصطلاح سيبويه هي تنويعات صوتية لهجية للصوائت الأصول، وليس لها أي قيمة فونيمية مستقلة عن الصوائت الأصول، وقد ذكر سيبويه منها اثنين، هما: ألف الإمالة (الترخيم)، وألف التفخيم (انظر: سيبويه: الكتاب، ج ٤ ص ٤٣٢)[٤٤].

أما ألف الإمالة: فهي التي تكون "بين الألف والياء نحو قولك في عَالِم وَ خَاتِم: عِـَالِم وَ خِـَاتِم" (ابن جني: سر صناعة الإعراب، ج ١ ص ٥٠).

وأما ألف التفخيم: فهي التي تكون "بين الألف والواو نحو قولهم: سَلام عليك، وَ قَام زيد. وعلى هذا كتبوا: الصلوٰة والزكوٰة والحيوٰة بالواو؛ لأن الألف مالت نحو الواو"[٤٥] (ابن جني: سر صناعة الإعراب، ج ١ ص ٥٠).

ثم توسع فيها ابن جني فقال في الخصائص: (باب في كَمِّيّة الحركات) ويقصد: كم عددها؟ وقال فيه: "أمّا ما في أيدي الناس في ظاهر الأمر فثلاث، وهي: الضمة والكسرة والفتحة. ومحصولها على الحقيقة ستّ. وذلك أن بين كل حركتين حركة" (الخصائص، ج ٣ ص ١٢٠). وقال في سر الصناعة: "إنك تجد الفتحة مشوبة بشيء من الكسرة أو الضمة، منحواً بها إليهما، وتجد الكسرة أيضاً مشوبة بشيء من الضمة، والضمة مشوبة بطرف من الكسرة، ولا تجد الكسرة ولا الضمة مشوبة بشيء من الفتحة" (سر صناعة الإعراب، ج ١ ص ٥١ - ٥٢)، وبيان هذه الحركات على النحو التالي:

- الفتحة المشوبة بالكسرة: وهي الفتحة قبل ألف الإمالة: عارف، كاتب، وتأتي دون ألف أيضاً كفتحة العين في (من عمرٍو) وفتحة الراء في قراءة ورش عن نافع (رَءا كوكباً) (انظر: ابن جني: سر صناعة الإعراب، ج ١ ص ٥٢).
- الفتحة المشوبة بالضمة: وهي الفتحة قبل ألف التفخيم: الصلوٰة، والزكوٰة.
- الكسرة المشوبة بالضمة: في نحو: قيل، سير، غيض، سيق.
- الضمة المشوبة بالكسرة: في عين مذعور، وباء ابن بور. وتأتي دون واو أيضاً كضمة قاف المنقر. (ابن جني: الخصائص، ج ٣ ص ١٢٠) وهي حركة تشبه سابقتها وقريبة منها لكنها لا تطابقها.

كما ذكر ابن جني أن إشباع هذه الحركات ينتج عنه الحروف الصوائت التالية:

- الألف المشوبة بالياء: وهي (ألف الإمالة).
- الألف المشوبة بالواو: وهي (ألف التفخيم).
- الياء المشوبة بالواو: في نحو: قيل. ولم يسمها، فلو سُميت (الياء المفخمة) ونحوه فحسن.

- الواو المشوبة بالياء: في مذعور. ولم يسمها، فلو سُميت (الواو الممالة) ونحوه فحسن.

ثم ههنا مسألتان مهمتان، أما الأولى فإن الياء المفخمة والواو الممالة وحركتيهما حرفان مغايران للياء المكسور ما قبلها والواو المضموم ما قبلها "ويدلّ على أن هذه الحركات معتدّات؛ اعتدادُ سيبويه بألف الإمالة وألف التفخيم حرفين غير الألف المفتوح ما قبلها" (ابن جني: الخصائص، ج ٣ ص ١٢٠).

وأما الثانية فإن قول ابن جني: "ولا تجد الكسرة ولا الضمة مشوبة بشيء من الفتحة" خاص بالفصيح، أما العامي اليوم ففيه[٤٦]:

- كسرة مشوبة بالفتحة (=الـخَفْضة) وبعدها ياء مشوبة بالألف (=الياء الممالة) كما في: صيف، بيت ... وأشباهها. وهذه الكسرة والياء تشبه ألف الإمالة وفتحتها وقريبة منها لكنها لا تطابقها[٤٧].

- وضمة مشوبة بالفتحة (=الرَفعة) وبعدها واو مشوبة بالألف (=الواو المفخمة) كما في: يوم، خوف ... وأشباهها. وهذه الضمة والواو تشبه ألف التفخيم وفتحتها وقريبة منها لكنها لا تطابقها.

٧ – شبه منحرف الصوائت:

إحدى منجزات الجمعية الصوتية الدولية ما يسمى (شبه منحرف الصوائت) ويقدم اليوم للدارسين بوصفه أداة عملية ناجعة لتعليم ووصف ودراسة الإمكانات النطقية للصوائت العالمية (في كل اللغات) والمقارنة بينها مع وضع رموز خاصة بكل صائت لاستعمالها في الكتابة الصوتية. ومن المتقرر أن شبه منحرف الصوائت هذا إنما هو تطوير لـ (الصوائت المعيارية) التي قدمها دانيال جونز[٤٨]، ولـ (الأبجدية الصوتية الواسعة) التي وضعها هنري سويت[٤٩] مستعملاً فيها الرموز الرومانية.

شبه منحرف الصوائت

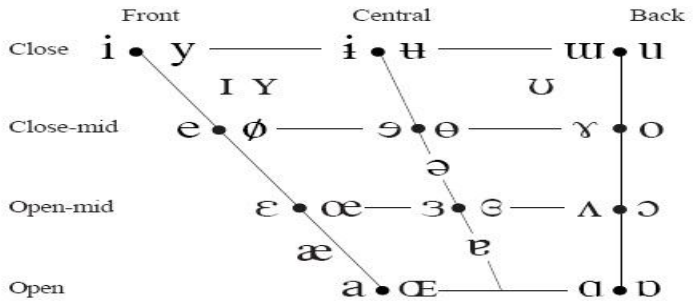

وقد وجدت أكثر المراجع العربية[٥٠] تقابل بين الصوائت المعيارية لدى دانيال جونز والصوائت العربية على النحو التالي:

الصائت العربي	أقرب مقابل معياري
الكسرة العربية المرققة (قصيرة أو طويلة)	[i]
الكسرة العربية المفخمة (قصيرة أو طويلة)	[e]
الفتحة العربية الممالة	[ɛ]
الفتحة العربية المرققة (قصيرة أو طويلة)	[a]
الفتحة العربية المفخمة	[ɑ]
الضمة العربية	[ɔ]
الضمة العربية المفخمة	[o]

الضمة العربية المرققة (قصيرة أو طويلة)	[u]

وبعد دراسة الصوائت العربية لاحظت أمرين:

الأول: إن هذا الشكل أداة مضللة وغير دقيقة لدارس العربية في كثير من الأحيان.

والثاني: بعد غض النظر عن الملاحظة الأولى، إن أكثر الصوائت الموجودة فيه لها مقابلات في العربية على هيئة تنويعات صوتية (ألوفونات)، قد لا تطابقها تماماً ولكنها تقاربها كثيراً في السمع؛ مما فرض على الباحث إعادة النظر في المقابلات المعيارية للصوائت العربية (المذكورة قبل قليل) وتعديلها.

وقد انطلق الباحث في ذلك من تصنيف الصوائت العربية إلى ثلاث مجموعات نطقية، هي: مجموعة الألف ومجموعة الواو ومجموعة الياء.

أما مجموعة الألف العربية فيمكن بيان مقابلاتها في الجدول التالي:

الصائت	مثاله	أقرب مقابل على شبه منحرف الصوائت
الألف العربية المطبقة	طاب	[ɑ:]
الفتحة العربية المطبقة	طن	[ʌ]
الألف العربية المرققة	تاب	[æ:]
الفتحة العربية المرققة	تل	تجويف الفم أضيق قليلاً من [æ]
الألف العربية المتوسطة	قاد	[a:]
الفتحة العربية المتوسطة	قد	تجويف الفم أضيق قليلاً من [a]
الألف العربية المفخمة	الصلوٰة	[ɔ:]
الفتحة العربية المشوبة بالضم	الصلوٰة	تجويف الفم أضيق قليلاً من [ɔ]

ويمكن بيان مقابلات مجموعة الواو العربية في الجدول التالي:

الصائت	مثاله	أقرب مقابل على شبه منحرف الصوائت
الواو العربية المطبقة	طوس	[u:]
الضمة العربية المطبقة	طف	تجويف الفم أوسع قليلاً من [u]
الضمة العربية المتوسطة	قل	[ʊ]
الواو العربية المتوسطة (ولا أعرف للواو المرققة ولا الضمة المرققة مقابلاً في الشكل[٥١])	قوت	تجويف الفم أضيق قليلاً من [ʊ:]
الضمة العربية المشوبة بالكسر	منڤر	[ø]
الواو العربية الممالة	مذعور	تجويف الفم أضيق قليلاً من [ø:]
الواو العربية المفخمة	يوم (بالعامية)	[o:]

وأما مجموعة الياء العربية فهي أقرب المجموعات لوصف شبه منحرف الصوائت، ويمكن بيان مقابلاتها في الجدول التالي:

الصائت	مثاله	أقرب مقابل على شبه منحرف الصوائت
الياء العربية المرققة (ولا أعرف للياء المطبقة والمتوسطة مقابلاً في الشكل)	تين	[i:]
الكسرة العربية المرققة	سن	[ɪ]

(ولا أعرف للكسرة المطبقة والمتوسطة مقابلاً في الشكل)		
الكسرة العربية المشوبة بالفتحة	صيف	[e]
الياء العربية الممالة	صيف	تجويف الفم أضيق قليلاً من [e:]
الفتحة العربية المشوبة بالكسرة	رَءا	[ɛ]
الألف العربية الممالة	عارف	تجويف الفم أضيق قليلاً من [ɛ:]
الكسرة العربية المشوبة بالضمة	قيل	[Y]
الياء العربية المفخمة	قيل	[y:]

الخاتمة:

حاول هذا البحث نقل ثنائية القديم / الحديث من محور زمني يهضم القديم حقه في غالب الأحوال إلى محور معرفي يعنى بالحقائق العلمية، ويميز بينها وبين اختلاف الأبنية النظرية، ويمكن لنا أخيراً إيجاز بعض ما قام به البحث على النحو التالي:

- بيّن البحث أن تمييز اللغويين العرب القدماء بين (الصوت) و (الحرف) إنما هو تمييز بين الجنس وأحد أنواعه.
- نبّه البحث إلى خطأ المحدثين في قصر معنى الحرف على الرمز المكتوب، وبين أن المقصود بالحرف عند اللغويين العرب القدماء هو (الصوت اللغوي) أي الصوت الصادر عن جهاز النطق عند الإنسان، والذي يقوم – عند التركيب - بدور وظيفي معين هو (الإحالة إلى معنى وضعي).
- نبه البحث إلى وعي اللغويين العرب القدماء بالتمييز بين الصوامت والصوائت.
- نبه البحث إلى خطأ المحدثين في الخلط بين الحركات والحروف الصوائت، وبين أن الحركات في البناء النظري للغويين العرب القدماء كيانات صوتية قسيمة للحروف ومباينة لها من الناحية النطقية كماً وكيفاً؛ لذا أفردوها برسم خاص بها يميزها عن الحروف الصوائت.
- نبه البحث إلى دقه الوصف القائل بوجود حركات مجانسة قبل حروف المد.
- بين البحث كيفية نطق الصوائت العربية، والعلة في اختلاف أجراسها.
- بين البحث حالات توالي الحروف والحركات، وذكر خلالها الصوائت المركبة في العربية.
- بين البحث تأثير مجاورة الصوائت للصوامت، وميز بين ثلاث حالات للصوائت، هي: الترقيق، وتفخيم الإطباق، والتوسط بينهما.
- بين البحث التنويعات الصوتية اللهجية للصوائت العربية.
- حاول البحث الربط بين الصوائت العربية ومقابلاتها شبه منحرف الصوائت الذي أنجزته الجمعية الصوتية الدولية، وبه تتبين الكتابة الصوتية الصحيحة لكل تنويع صوتي من الصوائت العربية.

Abstract

The vowels in the Classical Arabic language

By Majed H. Al-osaimi

This research aims to study the vowels in the Classical Arabic language in order to clarify its Phoneme, Allophone and pronunciations as well as their diphthongs, and the link between vowels and consonants. This research represents the ancient scholars' description of Classical Arabic phonics, as well as adopting and building on them, in addition to clarifying some of the problems around them. The research finally tries to relate it to one of the achievements of the International Phonetic Association, which is IPA chart, and clarifying the correct phonetic writing for each phonetic variation of Arabic vowels.

الهوامش

[١] قد يجهل بعضهم أن البناء النظري للسانيين المحدثين يمتد في التاريخ إلى العصر اليوناني، فمن الناحية الصوتية مثلاً ميز اليونانيون بين الصوامت (=غير المصوتة) والصوائت (=المصوتة)، ووضعوا مفهوم المقطع بأقسامه المتعددة ... إلخ، ثم لما جاء فلاسفة العرب نقلوا الفلسفة اليونانية إلى العربية ومنها تلك الدراسات الصوتية، كما فعل الفارابي مثلاً في كتابه: الموسيقى الكبير.

[٢] انظر في بيان هذا الخطأ: محمد لطفي الزليطني: ظاهرة الحرف عند اللغويين العرب القدماء، ضمن: مجلة المعجمية، ع ٢ ص ٤٧ وما بعدها.

[٣] المقصود هو توقف اهتزاز الوترين وانقطاع الصوت.

[٤] الإطلاق هنا على اعتبارهم مدرسة واحدة يشرح بعضهم كلام بعض، إلا إن تبين خلاف ذلك.

[٥] إذا تقرر ذلك تبين الخلل التصوري في قول تمام حسان: "من الواضح أن سيبويه مع تفريقه بين أصول الحروف وفروعها لم يكن يفرق بين اصطلاحي (الحرف) و (الصوت) على نحو ما يفرق علم اللغة الحديث بين اصطلاحي (phoneme) و (sound) أو (allophone) فالحرف لديه يشمل كل ذلك ..." اللغة العربية معناها ومبناها، ص ٥٧. ولعل تصور المسألة يكفي في بيان الخلل ويغني عن الإطالة.

[٦] يذكر إبراهيم أنيس في كتابه الأصوات اللغوية أن هذا التمييز "من نتائج تحليل المحدثين للأصوات اللغوية" ص ٢٦. وهذا سهو منه.

[٧] المقصود هنا بلغة معاصرة أن الصوائت تخرج دون وجود أي إعاقة للهواء سواء أكانت كاملة أم جزئية، حيث الإعاقة الكاملة تكون مع الأصوات (الشديدة) التي يسميها المحدثون انفجارية (plosive)، والإعاقة الجزئية تكون مع الأصوات (الرخوة) التي يسميها المحدثون احتكاكية (fricative) وتكون أيضاً مع الأصوات (المتوسطة بين الشدة والرخاوة) وتشمل ما يسميه المحدثون جانبية (lateral) وأنفية (nasal).

[٨] يدخل بعض العلماء المتقدمين الهمزة في حروف العلة، ويفردها آخرون فيميزون بين: صحيح ومعتل ومهموز.

[٩] وهي الحروف التي تبنى منها الجذور المعجمية للكلمة العربية، وهي بحاجة لإعادة النظر في بحث آخر مستقل.

[١٠] لم تكن هذه الأصوات ترسم في اللغات السامية ومنها العربية، ثم قام علماء العربية (منذ أبي الأسود الدؤلي) بتطوير الرسم القديم.

[١١] يذكر بعض المحدثين أن الحركات في العربية لا رسم لها! مع معرفته الكاملة برسمها! فإن كان يقصد أنهم لم يجعلوا لها حروفاً خاصة بها، كما يفعل غيرهم! فهذا قياس مع الفارق، وخلط بين الأبنية النظرية،

وتحكم في الاختيار؛ لأن المتقدمين اختاروا رسم الحروف للطويلة والشكل للقصيرة، واختار المحدثون العكس أي الحروف للقصيرة والشكل للطويلة. وإن كان يقصد أن الكتاب لا يلتزمون برسم الحركات، فهذا عيب الكاتب لا الكتابة العربية.

[١٢] يقولون مثلاً عن (مَا) إنها مكونة من حرف صامت (=الميم) وبعده حركة طويلة! وهذا تلفيق اصطلاحي بين بنائين نظريين، وهذا التلفيق غير مقبول إلا لو جاء لزيادة إيضاح أو تقريب فكرة، أما محاكمة بناء نظري إلى آخر فتحكم.

[١٣] وهو ما يسميه دانيال جونز (chroneme) ويسميه سعد مصلوح (طوليم).

[١٤] يميز الباحث في العربية هنا بين درجتين كمية لطول المد، هما: قصيرة (للحركات) وطويلة (للحروف)، وفي العربية درجات أخرى لن يشملها هذا البحث، فالروم والإشمام مثلاً درجتان أقصر من القصيرة. وللطويلة درجات متعددة، وسيأتي الحديث عن درجتين منها، هما: المد واللين.

[١٥] يحسن الانتباه إلى أن كلام ابن جني هذا امتداد وتوضيح لكلام الخليل الذي ذكره سيبويه في كتابه ووضحه أيضاً السيرافي في شرحه. انظر: كتاب سيبويه، ج ٤ ص ٢٤٢.

[١٦] قوله هذا يتسق في ظاهره مع تسمية اللسانيين للحروف الصوائت: الفتحة الطويلة، الكسرة الطويلة، الضمة الطويلة. وهكذا فهموه، ولكنها تسمية ملبسة وقد تؤدي لتصور كلامه على غير مراده.

[١٧] انظر: عبدالرحمن الحاج صالح: بحوث ودراسات في اللسانيات العربية، ج ٢ ص ١٩٤.

[١٨] لفهم المسألة بدقة يمكن الاستعانة هنا بدراسة الفيزيائيين للرنين في الأعمدة الهوائية، مع التأكيد هنا على رفض الباحث لأن يتحول اللغوي إلى فيزيائي.

[١٩] هكذا استعملها الخليل عند وصفه لأصوات العربية. انظر العين، ج ١ ص ٤٧. وهو في رأيي أفضل ممن استعمل غير الألف.

[٢٠] (long).

[٢١] (open) ويسمى أيضاً منخفض (low) وبسبب انفتاحه وطوله يسمى: الفتحة الطويلة.

[٢٢] (unrounded) وبصورة أدق تعد الشفتان محايدة (neutral).

[٢٣] (front).

[٢٤] الحديث هنا عن الصورة المثالية للألف، وسيأتي بيان تأثرها بمجاورة حروف الاستعلاء.

[٢٥] (rounded) وبصورة أدق الضم الضيق للشفتين (close rounding).

[٢٦] (close) ويسمى أيضاً مرتفع (high).

[٢٧] (back).

[٢٨] الحديث هنا عن الصورة المثالية للواو، وسيأتي بيان تأثرها بمجاورة حروف الاستعلاء.

[٢٩] لو اقترب اللسان هنا من الحنك أكثر من المقدار المعين فإنه حينئذ سيعيق الهواء إعاقة جزئية محدثاً بذلك صوتاً صامتاً احتكاكياً (لعله يكون صوت الشين، أو الجيم الشامية).

[٣٠] يذكر أكثر الباحثين أن الشفتين معه تكون منفرجة (spread) أي متباعدة على هيئة التبسم، ولا أرى لتباعد الشفتين أي دور في إخراج صوت الياء العربية، فسواء باعدت بينهما أم تركتها محايدة فلن يؤثر ذلك، ولكن يمكن استعمال انفراج الشفتين للتعليم فقط.

[٣١] يمكن مقابلة هذا النظام الثنائي بالنظام الثنائي في لغة الآلة.

[٣٢] انظر تفصيل ذلك عند: محمد لطفي الزليطني: ظاهرة الحرف عند اللغويين العرب القدماء، ضمن: مجلة المعجمية، ع ٢ ص ٥١ وما بعدها.

[٣٣] يقول تمام حسان: "أما حروف العلة فلا تقبل تحريكاً ولا إسكاناً". اللغة العربية معناها ومبناها، ص ٧٠. وهذا القول مخالف لبناء العرب النظري.

[٣٤] يقلب الألف واواً إذا سبقته ضمة، وياء إذا سبقته كسرة، وهذا الموضوع له بحث آخر مستقل.

[٣٥] (اللين) درجة كمية لطول الحروف الصوائت، وهي أقصر من درجة (المد)، والتمييز بينهما جلي جداً.

[٣٦] وليس المقصود بها خلط صائتين ومزجهما حتى يكونا صوتاً واحداً.

[٣٧] في الانجليزية - مثلاً - هما فونيم واحد مركب، ويرمز لـ [وْ] فيها بـ: /əʊ/ ولـ [يْ] بـ /eɪ/.

[٣٨] ليس هناك مقطع مركب من صائتين متتابعين، أما عدّ الصائت الأول صامتاً فنظرة وظيفية محض، وأما عده شبه صامت أو نصف صامت فمحاولة لحل الإشكال، وتطرَّفَ بعضهم فذكر أنها أصوات احتكاكية! والذي في المتن أقرب للصواب في ظني. وقد يقتنع بعضهم حين يعلم أن [يُ] يقابلها في الانجليزية [ju] وهو عندهم صائت مركب وفونيم واحد في نحو: (music, ues, unite, few).

[٣٩] ينكر بعض اللسانيين وجود حركة مجانسة قبلهما، ويرى أنهما حركتان طويلتان وأن الحرف قبلهما متحرك بهما! وهذا خلط بين الأبنية النظرية؛ وقد سبق بيان ذلك.

[٤٠] تقلب الواو ياء إذا سبقتها كسرة، وتقلب الياء واواً إذا سبقتها ضمة، لحصول الانسجام بين الصوائت، وهذا الموضوع له بحث آخر مستقل.

[٤١] هذا التأثير تأثير فوناتيكي أي في مخرج الحرف، وهو يختلف عن التأثير الفونولوجي المشهور في الصرف، والذي ينتج عنه القلب والإعلال والإبدال ... وله بحث آخر مستقل.

[٤٢] انظر: تمام حسان: مناهج البحث في اللغة، ص ١٠٨ وما بعدها. وقد يكون إبراهيم أنيس سبقه إلى هذه الملاحظة، لكنها عند تمام أكثر اكتمالاً ووضوحاً. انظر: إبراهيم أنيس: الأصوات اللغوية، ص ٤١. وانظر أيضاً: كمال بشر: علم اللغة العام - الأصوات، ص ١٤٨ وما بعدها. ولعل أصلها موجود عند سيبويه الذي جعل حروف الاستعلاء موانع للإمالة وموجبة للتفخيم. انظر: الكتاب، ج ٤ ص ١٢٨. وقد أشار ساجقلي زادة في جهد المقل إلى شيء من هذا، انظر: ص ١٥٤.

[٤٣] وضعت رسماً مقترحاً لكل واحد من هذه التنويعات الصوتية، ثم تركت اقتراح الرسم لقلة جدواه.

[٤٤] وانظر: شرح السيرافي عليه، ج١٨ ص ٢٦٢ وما بعدها. ج ١٦ ص ٢٧ وما بعدها. والذي يظهر لي أن الإمالة لغة نجدية والتفخيم لغة حجازية. ولو أضيف إليهما عند سيبويه (همزة بين بين) لكان مقبولاً؛ لدخولها ضمن تعريف الصوائت من وجه. وذهب السيرافي في شرحه إلى أن هذه الهمزة ثلاثة أحرف مختلفة؛ فتصبح الصوائت الفروع حينئذ خمسة.

[٤٥] ولا زالت هذه الألف تنطق هكذا اليوم في بادية الحجاز.

[٤٦] التسمية بـ (خفضة، رفعة) من اقتراح تمام حسان. انظر: مناهج البحث في اللغة، ص ١٠٨، ١٣٧. وكمال بشر: علم الأصوات، ص ٦٣٨. أما (الياء الممالة) و (الواو المفخمة) فتسمية استحسنتها.

[٤٧] يطابق تمام حسان بينهما. انظر: اللغة العربية معناها ومبناها، ص ٥٣. ويمكن ملاحظة الفرق بينهما عند نطق: عارف (=إمالة) و بيت (=خفضة).

[٤٨] عالم أصوات انجليزي قدم فكرة (الأصوات المعيارية) بوصفها مقاييس صوتية يمكن استعمالها عند دراسة أي لغة، حيث قام بتسجيل نطقه الشخصي لهذه الأصوات في اسطوانات ثم وزع نسخاً منها على العلماء لاستعمالها معياراً للدراسة الصوتية!

[٤٩] عالم أصوات انجليزي وضع نوعين من الأبجدية هما: (الأبجدية الصوتية الواسعة) لتمثيل كل فونيم برمز خاص به، و (الأبجدية الصوتية الضيقة) لتمثيل كل ألوفون برمز خاص به.

[٥٠] أول من وجدته قابل بينها هو إبراهيم أنيس. انظر: الأصوات اللغوية، ص ٤١. واكتفى من جاء بعده بتكرار رأيه.

[٥١] لعل أقرب ما يمكن جعله مقابلاً للواو والضمة المرققتين هو [ɒ] لولا أنه عندهم أقل ضماً للشفتين؛ مما أبعده عنهما في السمع.

المراجع:

- أنيس، إبراهيم. ***الأصوات اللغوية***. القاهرة: مكتبة الأنجلو المصرية، ١٩٨٧م.
- بشر، كمال. ***علم الأصوات***. القاهرة: دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع، ٢٠٠٠م.
- الجاحظ، عمرو بن بحر. ***رسائل الجاحظ***. تحقيق وشرح عبدالسلام محمد هارون، الطبعة الأولى؛ بيروت: دار الجيل، ١٤١١هـ - ١٩٩١م.
- ابن جني، أبو الفتح عثمان. ***الخصائص***. تحقيق محمد علي النجار، بيروت لبنان: دار الكتاب العربي.
- ابن جني، أبو الفتح عثمان. ***سر صناعة الإعراب***. دراسة وتحقيق الدكتور حسن هنداوي، الطبعة الثانية؛ دمشق: دار القلم للطباعة والنشر والتوزيع، ١٤١٣هـ - ١٩٩٣م.
- حسان، تمام. ***اللغة العربية معناها ومبناها***. الدار البيضاء المغرب: دار الثقافة، ١٩٩٤م.
- حسان، تمام. ***مناهج البحث في اللغة***. القاهرة: مكتبة الأنجلو المصرية، ١٩٩٠م.
- الزليطني، محمد لطفي. ***ظاهرة الحرف عند اللغويين العرب القدماء***. ضمن مجلة المعجمية، العدد ٢، تونس، ١٩٨٦م.
- ساجقلي زاده، محمد بن أبي بكر المرعشي. ***جهد المقل***. دراسة وتحقيق سالم قدوري الحمد، الطبعة الثانية؛ عمان: دار عمار للنشر والتوزيع، ١٤٢٩هـ - ٢٠٠٨م.
- سيبويه، أبو بشر عمرو بن عثمان. ***الكتاب***. تحقيق وشرح عبدالسلام محمد هارون، الطبعة الثانية؛ القاهرة: مكتبة الخانجي، ١٤٠٢هـ - ١٩٨٢م.
- السيرافي، أبو سعيد. ***شرح كتاب سيبويه***. تحقيق متعدد، القاهرة: دار الكتب والوثائق القومية، مركز تحقيق التراث.
- الفارابي، أبو نصر محمد. ***كتاب الموسيقى الكبير***. تحقيق وشرح غطاس عبدالملك خشبة، القاهرة: دار الكاتب العربي للطباعة والنشر.
- مصلوح، سعد. ***دراسة السمع والكلام***. مصر: عالم الكتب، ١٤٢٠هـ - ٢٠٠٠م.